

أضعف الإيمان

جاء في الحديث الشريف : « من رأى منكماً منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » .
ويحسب بعض مفسري هذا الحديث ، أن الصفة هنا ترجع إلى الإيمان ، والواقع أن الموصوف هنا هو الوسيلة التي يتوصل بها الإيمان لا الإيمان نفسه . فالمؤمن الذي يغير المنكر بقلبه ، كالمؤمن الذي يغيره بيده سواء بسواء ، وإيمان الأول ، كإيمان الأخير لا يشوبهما ضعف ولا يلحقهما وهن . كلاهما مؤمن قوى نقي ، نهض بواجبه وأبرأ ذمته ، وعلى الله جزاؤهما وثوابهما .

والدليل على ما نقول أمران :

أولهما : القاعدة الشرعية الأساسية :

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) . .

وثانيهما : الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا

الله ، وأدناه إمطة الأذى عن الطريق » .

فن القاعدة الأولى نعلم جميعاً أن آيات القرآن الكريم تواتت على أن الإنسان يحاسب على ترك الحسنة وإتيان السيئة في حدود قدرته واستطاعته ، فمن تعدى عن فعل الخير ، أو واقع الشر عن عجز أو إكراه فلا إثم عليه ، والله غفور رحيم ، وهو حكم تقضى به البداهة ، ولذلك جاءت شريعة المسلمين لتؤيده ولتبنى أحكامها على أساس منه ، لأن الإسلام هو دين الفطرة ، أي دين البداهة السليمة التي لا تصادم منطقاً مستقيماً ، ولا تعارض مصلحة ظاهرة ، فالإسلام يرى أن تحميل الناس ما لا يطيقون وتكليفهم ما لا يستطيعون ، أمر لا يصدر عن عاقل ، وشر

لاينجم عنه إلا شر أكبر منه . بل إن الإسلام لا يقنع بأن تدور أحكامه ، وأوامره ونواهيهِ مع الاستطاعة والقدرة إذ أنه لا يدع باباً من التخفيف أو التيسير إلا فتحه ، لحمل الناس على أحكامه ، عن طواعية واختيار ليتدرجوا هم أنفسهم إلى ما فيه المشقة حتى يبلغوا ، ما يسميه الإسلام « الإحسان » .

فقاعدة « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » كأصل أصيل في التشريع والتقويم والهداية ، تأكدت بقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم)^(١) ، (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)^(٢) ، (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج)^(٣) .

وفي القرآن آيات تفصل هذا المبدأ ، وتطبقه ، في سورة التوبة (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) في هذه الآية لم يفضل المؤمنين المجاهدين على من عداهم من المؤمنين ، إلا أن يكون المؤمن الذي قعد عن الجهاد خالياً من العجز ، قادراً على الجهاد ، ولذلك جاء وصف (غير أولى الضرر) تطبيقاً للقاعدة العامة وقد روت لنا سورة التوبة أيضاً حكاية هؤلاء المجاهدين الفقراء الذين أرادوا أن يجاهدوا ، ولكن حال دون هذه الإرادة أنهم لم يجدوا دابة تحملهم ، ولم يجد الرسول لهم ظهراً ، ينقلهم إلى ميدان القتال ، فخفف عنهم القرآن ، وأذهب عنهم الحزن ، وأكد لهم أن ثوابهم لن يضيع . قال الله تعالى (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) ، وفي سورة النحل : (من كفر بالله من

(٢) سورة البقرة .

(١) سورة النحل .

(٣) سورة التوبة .

بعد إيمانه - إلا من أكره - وقلبه مطمئن بالإيمان) ، فحتى إعلان الكفر ، وهو أكبر الآثام ورأس المعاصي ، مغفور ما دام عن إكراه ، لاعن اقتناع مستقر ، ونفس مطمئنة إلى الكفر .

وإلى جانب هذا تأتي أحكام التيسير التي هي جزء من الشريعة لا يتجزأ منها ولا ينفصل عنها ، تطبيقاً للحديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » ومن هذه الآيات (يريد الله أن يخفف عنكم) (١) ، (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (٢) ، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٣)

أما الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأدناه إمارة الأذى عن الطريق » فعبارة قاطعة الدلالة على أن المقصود في لغة الحديث النبوي بأفضل الإيمان وأدناه ، هو الأعمال التي يهدى إليها الإيمان ، فالحديث لا يفاضل بين إيمان وإيمان ، وإنما بين عمل وعمل ، أو قول وعمل ، أو قول وقول ، وكلها مما يأمر به الإيمان أو يدعو إليه ويوجب فيه ويعين عليه ، ولكن هذه الأعمال في ذاتها تتفاوت فضلاً ونفعاً للناس ، كما تتفاضل من حيث إنها أسرع إلى تحقيق الخير ، وأفضل في رد الشر .

ومن ثم يكون المؤمن الذي رأى منكراً فود أن يغيره بيده ، فعجز عجزاً حقيقياً ، ثم أراد أن يغيره بلسانه فاستحال ذلك أيضاً عليه ، فغيره بقلبه ، في مثل إيمان الذي أراد أن يغير المنكر بيده فأعانه الله على ذلك ووفق إلى ما أراد . ولكن لا بد أن يكون العجز حقيقياً لا مدعى به ، وأن تكون نية المؤمن ، قد انصرفت إلى رد الشر ، وفعل الخير ، إيماناً واحتساباً لا مراعاة للناس ، والتماساً للمعاذير ، ورداً للتهمة . أما إذا كان الاعتذار بالاستحالة أو عدم الاستطاعة ، التماساً للنجاة ، وحرصاً

(٢) سورة الحج .

(١) سورة النساء .

(٣) سورة البقرة .

على الحياة فهذه صفة المنافقين ، لأن المؤمن الصادق لا يدخل في حسابه ولا يشغل باله رأى الناس ، فلا يهجمه أن يقولوا عنه أبلى فأحسن البلاء ، أو تقاعس ولم يؤد الأمانة ، لأنه - من وحى إيمانه - لا يقنع بأقل من الكمال ، ولا متغل حتى يبذل النفس وكل المال . وفقهاء المسلمين يتفقون على أن إزالة الشر باليد واجبة ، ما لم تؤد إلى شر أكبر منها ، والأمر موكول إلى المؤمن ليستثني قلبه ، فإن رأى إزالة المنكر باليد مستطاعة - ولو مع المشقة - وأنها لا تؤدى إلى شر أكبر منها أقدم ، فإن وفق فيها ونعمت ، وإلا فقد اجتهد واه أجر الاجتهاد . وقد جرى الناس على أن يقللوا من قدر إزالة المنكر بالقلب ، هذا إن فهموا معناها . والواقع أن إزالة المنكر بالقلب ، لاغنى عنها لمن أراد أن يزيل منكراً بيده أو بلسانه ، فاليد واللسان خادمان مطيعان للقلب ، يأتمران بأمره ، ويستمدان منه القوة وقد لا يبلغان مبلغ قوته ، فليس كل مؤمن مقاتل يحسن استعمال السلاح ، وليس كل مؤمن قوؤلاً فصيحاً ، وإن كان المؤمن يجد في إيمانه ، ما يعوض النقص في الكفاية في معالجة فنون الحياة ، وأساليب القتال ، وطرائق القول والأمانة . وإزالة المنكر بالقلب ، هي رفض لهذا المنكر ، ولعنه في الليل والنهار والضيق به في السكنة والحركة وانتظار الفرصة المواتية ، لإزالته باليد أو شجبه على الأقل باللسان ، والتنديد به ، والإهابة للعمل ضده . وما تغير في أحوال الناس شيء إلى خير ، وما زال عن الناس شيء من الشر إلا إذا انعقدت قلوبهم على إزالته ، فإذا أصبحوا رأوا أنفسهم - من غير حديث أو اتفاق - قد أجمعوا على المناداة بسقوطه ، ثم الاستعداد للقتال للقضاء عليه والخلاص منه . والعجيب في إيمان القلوب أن له إشعاعاً ، لا يمكن كتمانها أو إخفاؤها ، أو إقامة السدود في وجه اتساعه ، وإيمان القلوب شيء غير هذا القول اللساني ، الذي يتناجى به الناس عند نزول المكروه بهم من ظلم أو فساد ، فقد تكون هذه المناجاة سبيلاً إلى تشييط المهمة ،

وصرف الناس عن العمل ، لأنها قول يراد به إزجاء الفراغ ، أو ادعاء
المجاهدة في سبيل الخير . . . والحق أنه لا توجد في قوى هذا الكون ، قوة
تعلو على الإيمان ، أو تغلبه ، ولو كانت قوة منبعثة من البارود والنار ،
أو من الكهرباء والبخار أو منطاقة من الطاقة الذرية ، أو ثمرة لقبلة
هيدروجينية ، وليس هذا الكلام شعراً إنما هو حقيقة علمية محسوبة
بالأعداد والأرقام ، ومرسومة في جداول وكشوف ، لعل قوة الإيمان
مردداً أنها قامت عند المسلمين وعند كل المؤمنين على الاقتناع العقلي
بقدر ما قامت على نبض الوجدان وإشراقه ، فليس هو شعوذة ولا سحراً ،
وإنما هو علم بما يحرك هذا الكون ويحكمه من قوانين تشمل آفاقه البعيدة
يقدر ما تحكم نفس الإنسان ، الذي استخلفه الله وسخر له ما في السموات
والأرض جميعاً ولقد ساق إلينا العلم الحديث في دنيا السياسة والاقتصاد
لا في دنيا الأديان والعقائد الدليل على أن القنابل الساحقة الماحقة ، قادرة
على إزالة المدن وتقويض المصانع والجسور ، وقتل ألوف الناس في جزء
من ثانية ، ولكنها عاجزة أشد العجز عن تقويض الإرادة الإنسانية أو الفت
فيها . لقد قتلت وأحرقت وأغرقت وأبادت ، قبلتنا هاير وشيا ونجازاكي
مائة ألف أو يزيد من اليابانيين ، فسلمت اليابان ، للولايات المتحدة وفي
أقل من القليل استطاعت إرادة اليابانيين الحياة وإصرارهم على سبق
العدو ، أن يعيدوا بناء ما تهدم ، وتعمير ما تخرب ، ثم على أن يكونوا
أنداداً لمن أنزلوا بهم الهزيمة ، ثم أن يسبقوهم في مجالات تفوقهم
وتخصصهم : التجارة والصناعة ، حتى يكون مطلب الدولة الفائزة من
الدولة المهزومة أن ترفع من قيمة عملتها عنوانيناً على سلامة اقتصادها ،
ودليل الرفاهية والغنى . وحدث شيء مثل هذا في ألمانيا التي ضربت قنابل
الولايات المتحدة مدنها وأزالت مصابيحها . لقد صدق رسول الله إذ قال :
«ألا إن في الإنسان لمضغة إن صلحت صلح ، وإن فسدت فسد ألا وهي
القلب» . . .